أمّ كلثوم

عودة الى البيت
الهجرة
مع رقية دائما
الرحيل

اراد الله بها خيرا ففارقها « عتيبة بن عدو الله أبى لهب » ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها اختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت ان تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه الى الحبشة

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى بيت أبيهما الرسول بمكة ، تشـــاركان أم المؤمنين الاولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها البطل النبى اذ يعود كل يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ماكان يلقى من اذى قريش وحربها، فيحطن به فى بر وحنو ، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هـــذه الآثار ، وأن يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن فيها الى بيته واهله

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع اسرتها فى صميم معركة الاضطهاد الاولى التى بلغت أقسى ذروتهـــا حين يئست قريش من خذلان ابى طالب لابن اخيه ، وخاب سعيها لديه كيما يسلمه الى اعدائه فيبطشوا به

ثم اسلم حمزة بن عبد المطلب ، واسلم عمر بن الخطاب، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فائتمروا بينهم على مقاطعـــة بنى هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقـــة علقوها فى جوف الكعبة ، وخرج محمد بأسرته ومن تبعـــه الى شعب ابى طالب ،

وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب غير أبى لهب

وهنالك عاشوا فى ضيق الحصـــار ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شىء الا سرا

حدثوا أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الاسدى ، يسير متخفيا معه غلام يحمـل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى مع زوجهـــا الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعـام الى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح انت وطعامك حتى أفضحك بمكة » !

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنـا قول سعد بن أبى وقاص بعد محنة الحصار بسنين :

« لقد جعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته وما أدرى ما هو الى الآن ! »

ومن عجب أن ذلك السهم الذى راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع ايمانهم مثقال ذرة، أو يزحزحهم عن موقفهم من نصرة الرسول قيد شعرة ، وعاد منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا !

ذلك أن نفرا من مشركى قريش ، روعهم الحصـــار الوحشى المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب

وبدا الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة النـدم وعذاب الضمير ..

حدثوا ان هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى ـ وكان ابن اخى نضلة بن هاشم لأمه ـ كان يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من راسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل

وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه فى ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش امها التى علت بها السن وانهكتها الاحداث واحست دنو اجلها ، وان بدا انها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من اجل زوجها الحبيب ؛ ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة

وقالت تناجى ابنتها :

ـ ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فاموت قريرة العين راضية

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ـ لا بأس عليك يا اماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد

واستطردت الأم :

ـ اى وربى لابأس على ياابنتى ! ما من امراة فى قريش ذاقت ما ذقت من نعيم ! بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد : حسبى من حياتى انى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى اننى المؤمنة الأولى ، وانى أم المؤمنين

ثم اسبلت عينيها وهمست :

ـ اللهم انى لا أحصى ثناء عليك ! اللهم انى لا أكره لقاءك؛ ولكنى أطمع فى مزيد من لذة التضحية وقدسية الألم وشرف الاستشهاد ، لأكون جديرة بما أنعمت على !

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه ذبالة واهية ، وشمل الكون سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى انفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تتعبد صامتة

ثم .. فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ، ودخل رسول الله بهى الطلعة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القوة والعافية

وأصغت « أم كلثوم » الى ما كان أبوها ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحمل من الانباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد

فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس ، ليحدث من فى الشعب عما رأى هنالك وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو ـ ذاك الذى كان يحمل المئونة الى المحاصرين ليلا ـ مشى الى زهير بن زاد الركب ابى أمية المخزومى ، اخى هند ام سلمة ، وابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له :

ـ يا زهير ، أقد رضيت ان تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، واخوالك حيث علمت ؟ اما انى أحلف بالله

أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما اجابك اليه أبدا !

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

ــ ويحك ياهشام ! فماذا أصنع ؟ أنما أنا رجل واحد ؛ والله لو كان معى رجل آخــر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها

قال هشام :

ــ قد وجدت رجلا

فسأله : من هو ؟

اجاب : أنا ...

قال زهير : أبغنا رجلا ثالثا

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يامطعم ، اقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ اما والله لئن امكنتموهم من هذه ، لتجدنهم اليها منكم سراعا

فكان جواب مطعم كجواب زهير

ومضى هشام بعد ذلك الى أبى البخترى بن هشام فحدثه بمثل ماحدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البخترى :

ــ وهل أجد من يعين على هذا ؟

أجاب هشام :

ــ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك

فطلب اليه ابو البخترى أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخط الحجون ـ بأعلى مكة ـ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ زهير فيكون أول من يتكلم ، فى مجتمع القوم

فلما اصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

ـ يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان فى ناحية المسجد :

ـ كذبت ، والله لاتشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الاسود » :

ـ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت !

وثنى أبو البخترى :

ـ صدق زمعة ، لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به

وايدهما المطعم :

ـ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقل ابو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ـ هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم ـ بمرأى من القوم ، وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد ـ والتمس الصحيفة ليشقها ، فاذا الارضة قد أكلتها فلم تدع منها الا : « باسمك اللهم » !

ووجمت قريش ، واسقط فى يديها واحست بالسهم الذى راشته يرتد الى صدرها فيمزقه

ونهض ابو طالب يسعى الى الشعب بالبشرى ، وقدذكر ـ وهو فى طريقه من البيت العتيق ـ بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو ان يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنـــا
على نأيهم ، والله بالنـــاس أرود
فيخبرهم أن الصحيفـــة مـزقت
وأن كل مالم يرضـــه الله مفســـد
تراوحهـــا افك وسحـــر مجمع
ولم يلف ســـحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطـا بالحجون تتابعـــوا
على ملأ ، يهدى لحـــزم ويرشـــد
قعـودا لدى خطم الحجـــون كأنهم
مقـــاولة ، بل هم أعـــز وامجـد
قضوا ماقضوا فى ليلهم ثم اصبحـوا
على مهل ، وســـائر الناس رقـــد

وايقظ صوته كل من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون للبشرى السعيدة ، وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر »

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال

واصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا الى

بيوتهم فى مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار

□

وفى بيت النبى بمكة ، رقدت السيدة خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم مالبثت روحها أن فاضت ، والنبى الى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل

وفى اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة ، حملت الى الحجون ، وهنالك اضجعها زوجها الرسول بيديه فى حفرتها ، ثم ودعها وآب الى بيته محزونا ، فضم اليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب الفادح

واحس من تلك اللحظة ان مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته فى وطنه ، حتى اذن الله له فى الهجرة الى يثرب

وودع الرسول بناته ، ثم ذهب فى ضحوة النهار الى بيت الصديق أبى بكر فاستصحبه

وتلبث لحظة قبل ان يفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله انك لاحب أرض الله الى الله ، وانك لاحب أرض الله الى ، ولولا أن أهلك اخرجونى مافارقتك »

ومضى فى طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه

أم كلثوم وأختها فاطمة ، وحيدتين فى البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الاسى لولا رحمة الله

وتلكأت الايام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالى حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبى سالما الى يثرب ، ثم مالبث زيد بن حارثة أن اقبـــل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها الصغرى الى دار الهجرة

وأمضت بنتا النبى يومهما الاخير بمكة مع اختهما زينب زوجة ابى العاص ، يذكرن الامس السعيد الذى ولى وراح

ثم اغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين الى الحجون فروين قبر الام بدموعهن

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها الى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل

والقت نظرة وداع على مغانى مكة وما تدرى اتكون اليها عودة !

ثم اندمجت فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنها مصاب الفراق انها ذاهبة الى ابيها الرسول فى منزله الكريم بين الانصار !

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الاحداث

وشهدت « أم كلثوم » عودة ابيها منتصرا من « بدر » ،

كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية »

واهل العام الثالث ومايزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة

وكانت « أم كلثوم » تلمح «عثمان» فى هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية

الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرسول الى بيته يستريح ، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستثار الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة » بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة ، فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم

وسمعت « أم كلثوم » أباها الرسول يقول لعمر ملاطفا :

ـ يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة !!

وخفق قلبها لما سمعت !

فما من امرأة خير من بنت عمر غير بنت النبى ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » فى بيت عثمان ؟

وعجبت لان أباها لم يحدثها فى هذا الامر من قبل ، وقد عهدته لايزوج احدى بناته دون أن يعرف رأيها

وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هى واختها الراحلة «رقية» تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب فى الزواج منهما

وقد عقد الزواج ، ثم واجهت الاختان حظهما المشترك ، الى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب فى وقت واحد

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قـــدر

عجيب يجمع بين الاختين ، او كتب لام كلثوم ان تتزوج هى الاخرى من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان ؟!

وبينا هى تحدق ـ شبه نائمة ـ فى الخيوط الخفية التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين رقية أبدا ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله عليه وسلم

وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها »

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب من حرير شبيه بذاك الذى دخلت به رقية على عثمان

وبعث النبى معها « أم عياش » كما بعثها مع اختها من قبل ..

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة او منام

همست فى شجن :

« لم يبق يا رقيـــة الا ان الحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! »

لكنها عاشت ست سنوات ، رأت فيها الاسلام يبلغ أوج انتصاره ، وشاهدت اباها البطل يخرج من معركة فى اثر معركة ، مؤيدا مظفرا ...

حتى ماتت فى بيت عثمان ، فى شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد

ووسدوها ثرى «يثرب» الى جانب مابقى من رفاة اختها ، ووقف النبى على قبر ابنتيه دامع العينين ، مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ...

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتم والترمل، فلم تشهد اباها النبى بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ، ولا شهدت زوجها « عثمان » يلقى مصرعه الدامى بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مراى من زوجته الثالثة : أم البنين !